قرية خبيثة

أمل العشماوي

لطالما كانت عودة خليل إلى قريته الصغيرة حدثًا يستقبله الأهالي بحفاوة بالغة؛ على أمل أن يحمل معه كلمةً تُحيي بداخل أبنائهم حلم السفر إلى الكويت، حيث كان يعمل هناك لسنوات، لكن.. فى عصر يوم شديد الحر حيث لم يكن عند الأهالي أي شاغل يشغلهم عدا العمل والسعي وراء لقمة العيش، ظهر خليل على أعتاب القرية يحمل حقيبته السوداء ويسير بخطى مترددة، بدا متعبًا عابسًا مكللًا بعارٍ ليس له ذنب فيه، اجتذب دخوله المفاجئ كل العيون وتطلعوا نحوه واحدًا تلو الآخر برعبٍ صريح، حتى أن بعض النسوة حملن أولادهن وهرعن بعيدًا خوفًا من الاقتراب منه كحيوان أجرب خطر على الجميع.

طرق خليل باب بيته فخرجت له فيروز وعلى إثرها ظهر إسلام ابنهما، تعانق الثلاثة بعاطفة جياشة ثم تواروا خلف الجدران الصامتة، ومنذ تلك اللحظة لم تُفتح لهم نافذة أو باب، ولم يرهم أحدًا بالجوار

وكأن البيت ابتلعهم بداخله، الأهالي بدورهم لم يسألوا عنهم قط، وحرصوا على الابتعاد عن محيط البيت قدر المستطاع وتحذير الأولاد من قاطنيه. ومع الوقت خفت حدة التوتر، وانشغلوا بأحوالهم فكل واحد مهموم بما يكفي ولا يحتمل المزيد. وإذا بالخبر الأسود ينزل على رؤوسهم كالصاعقة، خبر سرق النوم وبدد الراحة والأمان؛ ففي إحدى القرى المجاورة قامت السلطات بفرض حظر التجوال ومنع الأهالي بالقوة من الخروج أو الدخول بعد اكتشاف حالة مصاب بالكورونا لشاب كان يعمل في محافظة شرم الشيخ مما تسبب في ركود حياتهم وزادهم فقرًا على فقر وجوعًا على جوع.

وبعد عشرة أيام جاء الخبر الأشد ظلامًا، وتلك المرة خرج من حنجرة الدكتور جلال طبيب الوحدة الصحية بعد أن قام بالكشف على خليل وتبين له أنه ربما يكون مصابًا بالكورونا، وأنه يعاني من كل أعراض هذا الفيروس اللعين من حمى وسعال وإرهاق شديد وضيق في التنفس.

انتشر الخبر فى القرية كالنيران الغاشمة، فتعالت الهمسات والشهقات ولطمت النساء على خدودهن واختبأ الرجال فى بيوتهم. في اليوم التالي بدت القرية مهجورة. وفي اليوم الثاني اجتمع الدكتور جلال والأسطى فؤاد وعم صالح شريكه وعم شافعي الجزار فى بيت العمدة الذى ركبه الخوف والقلق حتى قال لهم بنبرة آمرة: افعلوا شيئًا.. إن جاء أحدهم للتفتيش ستُفتح علينا أبواب جهنم، والدفاتر القديمة لن تعجبهم.

فتبادل الرجال النظرات فى حرج شديد فواصل العمدة حديثه قائلًا:

دكتور جلال أنت أكثر المتضررين بيننا؛ الأجهزة الطبية والتبرعات المنهوبة أنت المسئول عنها، قل شيئًا؟

فرفع جلال رأسه متوثبًا لكن عيناه التقت بعيون الأسطى فؤاد النارية، فلاذ بالصمت.

وبعدها قال عم صالح بتحريض: نعزله فى مكان بعيد عن القرية ونترك مصيره ومصير أسرته بين يد الله.

فصاح أسطى فؤاد: وأنا عندي بيت فى مزرعة المواشي الخاصة بي، هو المكان الأنسب لهم حاليًا.

فقال العمدة موجهًا الحديث للدكتور جلال: وهل يمكننا فعل هذا؟

أعتقد ذلك؛ معظم الحالات تعافت بعد أسبوعين وعادت للحياة مرة أخرى دون الدخول إلى المستشفى، المصاب يحتاج فقط إلى الراحة والتغذية الجيدة.

فاشتد الحماس بالعمدة وأردف: جيد جيد، لنعزلهم إذًا.

قال عم شافعي: هذا الاقتراح جيد بالفعل، لكن يجب أن يوافق عليه كل أهالي القرية.

فقال الأسطى فؤاد بثقة: سأرتب هذا الأمر على طريقتي، حضرة العمدة لنتحدث من فضلك على انفراد.

وفى إحدى الغرف البعيدة قال الأسطى فؤاد بصوت خافت: لو مات خليل أو ساءت حالة إسلام الصغير لن تصمت فيروز وكذلك لن يصمت خليل إن أصابهم مكروه.

فكر العمدة وقطب حاجبيه: معك حق، ماذا سنفعل؟

أرى أن العزل فكرة جيدة، ولكن عزلهم والتخلص منهم فكرة أفضل.

أتعني؟!

نعم، إن رحمهم المرض سيدركهم الجوع، وطبعًا سيكون الأمر سرًّا بيننا وبين صالح، نحتاج فقط إلى موافقتك ونحن سنتدبر كل شيء.

فكر العمدة، وقال بخبث: لو انكشف الأمر ستكون أنت المسؤول وحدك أمام القانون.

هز الأسطى فؤاد رأسه موافقًا: وعد شرف مني يا حضرة العمدة.

وتبادل الاثنان نظرة تواطؤ، وافتر ثغراهما عن ابتسامة رضا وسرور. وخرج الأسطى فؤاد ليقوم بأولى زياراته الكثيرة التى ستستمر حتى مغيب الشمس، وفى أثناء ذلك حدثت همسات متواطئة تجوب القرية ومناقشات طويلة المدة، وفى الساعة العاشرة مساءًا، انطلق الأطفال فى الأزقة، وخرجت النساء أمام بيوتهن ومعهن كراسي

المطبخ، والشباب والرجال على القهوة، فى حين اجتمع أمام بيت خليل كلٌ من الأسطى فؤاد وصالح، والدكتور جلال وعم شافعي، نادى الأسطى فؤاد بصوته الجهوري: ياخليل.. يا أبو إسلام اخرج لنا لنتحدث.

خرج أبو إسلام وهو بالكاد يقوَ على السير، سعل وقال: خير يا أسطى فؤاد؟

خير إن شاء الله، أنا والرجال اجتمعنا اليوم للتشاور بأمر مرضك.

سأل خليل بحزن: مرضي؟

نعم مرضك، الدكتور جلال قال أنك بحاجة للعزل مع أسرتك لمدة أسبوعين على الأقل.

قال خليل: وأنا معزول معهم بالفعل، وأشعر بالتحسن.

قال الدكتور جلال: لا يجوز يا أبو إسلام، لو جاء أحدهم من الوزارة للتفتيش سينفضح الأمر ويعزلون القرية وقد يموت الأهالي من الجوع وأنت لا ترضى لهم بهذا.

قال خليل: إذًا سنرحل فى الصباح ولن نعود إلى القرية أو نذكر اسمها مهما حدث.

ارتفع صوت صالح قائلا بغلظة: لن نعرض حياتنا وحياة أطفالنا للخطر، عليكم أن تأتوا معنا.

قاطعه أسطى فؤاد: لا تقلق يا أبو إسلام جهزنا لكم بيتًا مناسبًا للعيش بعيدًا عن القرية، ستمكثون فيه تحت رعاية الدكتور جلال حتى تتعافون بإذن الله.

وماذا لو ساءت حالتي أو حالة أحد أهلي؟

سنأخذكم إلى المستشفى على الفور، فأنت أخ عزيز وأهل بيتك على رؤوسنا، الكل هنا خائف من وجودكم بيننا، ارحم ضعفهم وقلة حيلتهم وتعال معنا.

عندها فقط أرخى أبو إسلام عينيه، وقال لإسلام: قل لأمك أن تحضر بعض الثياب والمؤن سنرحل الآن.

صاح فؤاد: ثياب فقط يا إسلام سنحضر لكم الطعام والشراب كل يوم بإذن الله لا تحمل هم أبدًا.

سار خليل فى المقدمة يتكئ على فيروز وإسلام، وبعدهم بمترين تبعهم الأسطى فؤاد وباقي الرجال يخترقون أزقة القرية حتى وصلوا إلى خلاء واسع المدى، ورأوا تلك المزرعة الصغيرة البعيدة عن الحارة يحيط بها جدران شاهقة داكنة وينبعث منها ضوء خافت يثير الوحدة والقلق.

ولما بلغوا المزرعة قادهم الأسطى فؤاد نحو البيت الذى قال عنه مناسبًا للمعيشة، غرفة حقيرة لا تزيد مساحتها عن عشرة أمتار بلا محارة أو بلاط أو شبابيك ترد عنهم برد الليل أو حر الظهيرة، ثمه أريكة مهترئة بغطاء عفن ووسادة قذرة فى إحدى الزوايا، وستارة باهتة اللون تنزل من السقف إلى الأرض، لتحجب رؤية الحمام القذر.

سقط خليل على الأريكة مستسلمًا بعد أن أنهكه السير، بينما صاحت فيهم فيروز بغضب ممزوج بعتاب، وكبت إسلام فى نفسه نزوعًا نحو البكاء، قال لها الأسطى فؤاد بنبرة مسرحية: نشعر بالأسف تجاهكم ولكن هذا أفضل ما عندي، وأغلق عليهم الباب بإحكام

وكذلك فعل بباب المزرعة الفولاذي الكبير وقال لحارس عريض المنكبين غليظ الهيئة: لا أحد يدخل أو يخرج من المزرعة مهما حدث.

فهز الحارس رأسه وربت على بندقيته الحية.

رجع الرجال إلى القرية يركبهم الزهو بعد منتصف الليل، ورأوا أن لا أحد عاد إلى بيته، وأن الأنوار لا تزال مضاءة فى كل النوافذ، والأطفال والشباب يتجولون هنا وهناك وكأن الليلة ليلة عيد. شهدت الأيام التالية أقاويل كثيرة، فالبعض قال أن الأسطى فؤاد لم ينس أن فيروز رفضته وفضلت الزواج من خليل النجار وهو الآن يغتنم فرصة الانتقام منها، البعض قال أن العمدة يخشى على سمعة القرية أكثر من خوفه على نفسه وعلى الأهالي، والبعض قال أن خليل تهرب من مساعدة أبنائهم مرارًا، وأن زوجته استأثرت بخير الخليج لنفسها ولابنها وليس من العدل أن نشاركهم الآن فى الخراب. وفى يوم الإعلان عن وفاة أسرة خليل خيّم الحزن على الجميع وقد تعاهدوا على حفظ السر لسنوات طويلة، وقبل انقضاء أيام الحداد الثلاث كان

بالإمكان الاحساس في الجو بذلك الوفاق غير المعلن بين الأهالي على مبدأ واحد: "أغلق النافذة التي تؤذيك".

وسيتعاظم تواطؤهم أكثر عندما يأتي أحدهم للسؤال عن خليل وأسرته بعد أشهر قليلة، ويقولون بصوت رجل واحد: رحلوا عن القرية منذ زمن بعيد، ولا نعرف عنهم شيئًا.